مجلة جامعة صبراتة العلمية
Sabratha University Scientific Journal

مجلة علمية نصف سنوية محكمة متخصصة في العلوم الإنسانية

تصدرها جامعة صبراتة بشكل الكتروني

المستطيل الذهبي في بيت صلاة بعض المساجد التلمسانية

The Golden Rectangle in the Praying House of some Tlemcen Mosques

د. بن زغادي محمد

محاضر، جامعة تلمسان، الجزائر

رقم الايداع القانوني بدار الكتب الوطنية:
2017-139

الترقيم الدولي:
ISSN (print) 2522 - 6460
ISSN (Online) 2707 - 6555

الموقع الألكتروني للمجلة:
https://jhs.sabu.edu.ly

مـجـلـــة
جامعة صبراتة العلمية

المستطيل الذهبي في بيت صلاة بعض المساجد التلمسانية

The Golden Rectangle in the Praying House of some Tlemcen Mosques

بن زغادي محمد
محاضر، جامعة تلمسان، الجزائر
benzghadi13@yahoo.fr

ملخص الدراسة:

تطرقنا في هذا الموضوع لجانبٍ خفي من عبقرية المعماري المسلم في تشييده للعمائر الدينية، المتعلقة على وجه الخصوص بالمستطيل الذهبي، أخذنا كمثال لتحليل هذه القاعدة الهندسية من العمارة الإسلامية بعض مساجد مدينة تلمسان العتيقة، المتمثلة في مسجد سيدي إبراهيم المصمودي المشيد من طرف الزيانيين، ومسجِدَيْ أبي مدين وسيدي الحلوي المشيدين من طرف المرينيين في فترة احتلالهم لمدينة تلمسان. إن هذا الموضوع يميط اللثام عن عبقرية معماريةٍ أثبتت مدى تطور فن العمارة عند الأسلاف، وهي الآن تفنِّد بشكل مباشر ما يدَّعيه المستشرقون الغربيون حول كون العمارة الإسلامية بناءٌ عشوائي خال من أي قاعدة هندسية، حيث وجدنا من خلال الحسابات الرياضية الخاصة بعينات الدراسة (مسجد سيدي إبراهيم المصمودي وسيدي الحلوي وسيدي أبي مدين) أن البنَّاء المسلم جسَّد واحداً من مبادئ الفن المعماري الحديث المتمثل في المستطيل الذهبي الذي يحقق الراحة والخصوصية في الفضاء المعماري الخاص بهذه المساجد.

الكلمات الدالة: المستطيل الذهبي، العمارة الإسلامية، تلمسان، مسجد سيدي إبراهيم المصمودي، مسجد سيدي أبي مدين، مسجد سيدي الحلوي.

Abstract:

In this paper, we discussed a hidden aspect of the Muslim architect's geniusity in constructing the religious buildings; with special reference to the golden rectangle. Some of Tlemcen ancient mosques namely the Mosque of Sidi Ebrahim Almasmudi which was constructed by the Zianians, and the mosques of Abi-Madian and Sidi Al-Halawi which were constructed by the Marinidis during their occupation of Tlemcen city were taken as an example. This topic reveals the extent of the development in our ancestors' art of architecture. This refutes the claim of the Western orientalists about the random construction of Islamic architecture and its lack of any engineering foundations. The special mathematical calculations conducted on the sample of the study –the previously mentioned three ancient mosques- revealed that the Islamic constructions represent the same style of the modern art of architecture in the form of the Golden Rectangle which creates privacy and comfort in the architecture space of these mosques.

Key Words: Golden Rectangle, Islamic Architecture, Tlemcen, Sidi Ibrahim El-Masmoudi Mosque, Sidi Abi Madian Mosque, Sidi El-Halawy Mosque

تمهيد:

تعتبر العمارة الإسلامية واحدة من أبرز البصمات الحضارية التي تركها لنا الأسلاف، وهي واحدة من التعابير المباشرة على عبقريتهم التي امتزجت فيها الإرادة الإنسانية المتطلعة إلى واقع أفضل مع عوامل طبيعية أخرى في تحصيل هذا النوع من الإنجازات، ولم تبق عمَّا كانت عليه في أول الأمر بسيطةً، بل تطورت وارتقت في شكلها وتصميمها ومواد بنائها، وربما يعزَّى ذلك للتغير الحضاري الذي يعَّد من سنن الحياة، وعندما ننتقل إلى الفترة الوسطى التي سادت فيها مجموعة من الدول الإسلامية نجد أن هذه البصمات ارتقت إلى الحدِّ الذي أصبحت فيه فنًّا تتجسد فيه ملامح الإبداع في الزخرفة والبناء والتصميم، وقد انقسمت بين ما هو ديني ومدني وعسكري، لأن المسلم تعبَّد فيها وآوى إليها من ظلمة الليل، واحتمى بها من الذين أرادوا به كيداً.

يُقصد بالعمارة ذات الطابع الديني تلك المباني والمنشآت التي شُيِّدت لغرض التعبد والتقرب لله عزَّ وجَل، حضيت بتقدير السلاطين، وقد كان الجامع الذي يعد أبرز أنواعها أوَّل ما يتم تشييده عند القيام بوضع حجر أساس أي تجمع سكاني ملتفٍ حول نواة معينة، اقتداءً بسنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن اختارت الناقة بأمرٍ من ربِّها مكان بناء مسجد قباء في اللحظة الأولى التي حطَّت قدما الرسول عليه أشرف الصلاة والسلام تراب المدينة المنورة، حيث ذكر هشام بن عمَّار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما افتتح البلدان كاتب ولاّته بمصر والبصرة والكوفة أن يتخذوا مسجداً للجماعة كأول خطوة[1]، كما اعتبرت مظهراً من مظاهر الأبهة وقوة ونفوذ الحاكم، لأن المعماري المسلم وضع فيها خالص عبقريته الفنية والمعمارية نزولاً عند أمر السلطان، وهو ما جعلها أهم الميزات العمرانية التي تحلَّت بها المدن الإسلامية العتيقة ومن أهم أنواعها المساجد لما لها من دور في إبقاء العبد على صلة بربه طوال اليوم وطيلة بقائه على ظهر هذه البسيطة.

تعريف المساجد:

المسجد لغة من الفعل ســـجد، أي خـــضع وأسلم وجهه لله الواحد القهار، يقال عين ساجدة أي فاترةٌ ونخلة ساجدة، أي أمالها حملُها، والمَسْجِد بكسر الجيم اسم مكان السجود والمَسْجَد بفتحها جبهة الرجل حيث يصيبه ندب السجود والمِسْجَدَةُ بكسر الميم الخُمرة المسجود عليها [2]، وقوله تعالى:﴿وَأَنَّ المسَـــاجِدَ لله فَلاَ تَدْعُوا مَعَ الله أَحَداً﴾[3]، قيـل هي مواضع السجود من الإنسان: الجبهة والأنف واليدين والركبتين والرِّجلين، ولمَّا كان السجود أشرف الأفعال التي تؤدَّى في الصلاة لقرب العبد في تلك اللحظات من خالقه أُشتق اسم المكان منه، فسُمي

الـمَسْجِد وليس الـمَرْكَع، وهناك لفظ الجامع وهو المسجد الكبير الذي تقام فيه صلاة الجمعة والأعياد، وعليه يمكن أن يكون كل جامع مسجد وليس كل مسجد جامع.[4]

اصطـــــلاحاً المسجد أهم وأول مُنشأة معمارية تُشيَّد في المدينة الإسلامية اقتداءً بسنة رسول الله صلى الله عليه وســـلم لما يقدمه من دورٍ ريادي في تكوين الأفراد داخل المدينة العربية، حيث أُعتمد كأســـلوب جديد يتوازى فيه الروحي بالمادي ويتكامل فيه المعنوي بالحســـــي لتحقيق ما جاء في قول الله تعالى:﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْـمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَـوْمًـا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَـارُ﴾[5]، وذكر هشام بن عمَّار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما افتتح البلدان كاتب ولاَّته بمصر والبصرة والكوفة أن يتخذوا في بادئ الأمر مسجداً للجماعة.

من هذا المنطلق يعَّد المسجد الجامع مركزاً روحياً وثقافياً وعلمياً وكذا النواة التي يحيط بها باقي العناصر المعمارية المكونة للنسيج المعماري بالمدن العتيقة كالأسواق والحمامات والفنادق والدروب والأحياء، لكن مع توالي فترات الخلافة أخذ يفقد بعضاً من أدواره ومكانته كمركز للنسيج العمراني، إذ تراجعت أهميته مقارنة بعمارة قصر السلطان ودواوينه، فقد صار أمر تخطيطه ثانوياً يلي قصر الخلافة في الأهمية، فغالباً ما كانت أبعاد القصر أكبر من أبعاد المسجد، ربما يرجع ذلك لتغير شخصية الحاكم التي أصبحت مشبعة بروح الغطرسة وميولاته المتجددة وابتعاده عن الجانب الديني، وهو ما أحدث عملية إفراغ للمسجد من روحه وجوهره الديني الذي يطبعه، وكمثال عن هذا النوع المعماري جامع القيروان بتونس الجامع الأموي بدمشق المؤسَّس من طرف الوليد بن عبد الملك نحو سنة88هـ/707م، والجامع الكبير بمدينة تلمسان الذي وضع أساسه السلطان يوسف بن تاشفين سنة 496هـ/1102م وأبدع في زخرفته نجله علي بن يوسف سنة 530هـ/1136م.[6]

وكما أشرنا سابقا فقد وضع المعماري المسلم في هذا النوع من العمارة كامل خبراته وعبقريته، ما يؤكد أنه اختلط في المساجد الفن بالقوة والمتانة والراحة، حتى يؤدي المسلمون صلواتهم في اطمئنان وأمان من أي عامل يعكر عليهم عمل العبادة، ولكي نتبين ذلك ارتأينا الوقوف على مبدأ راحة المصلي في المساجد العتيقة، وهل تبنَّى المعماري المسلم ذلك المبدأ في بنائه المساجد والجوامع؟

تحدَّث الفن المعماري الحديث على لسان عدد من المختصين في مجال العمارة عن قواعد هندسية تحقق مبدأ الراحة في العمائر على اختلاف طابعها، انطلاقاً من الوضعيات المختلفة التي تنجم عن حركة الإنسان وجلوسه، واتفقوا على كوْن شكل المستطيل هو الأكثر تحقيقاً لراحة الإنسان في العمارة، وقد حدَّد المعماري أرنست نوفر Ernest Neufert طوله بـ:137سم وعرضه بـ: 75سم، أنظر الشكل الآتي:

الشكل رقم 1: يوضح طول وعرض المستطيل الذهبي انطلاقا من وضعيات الإنسان

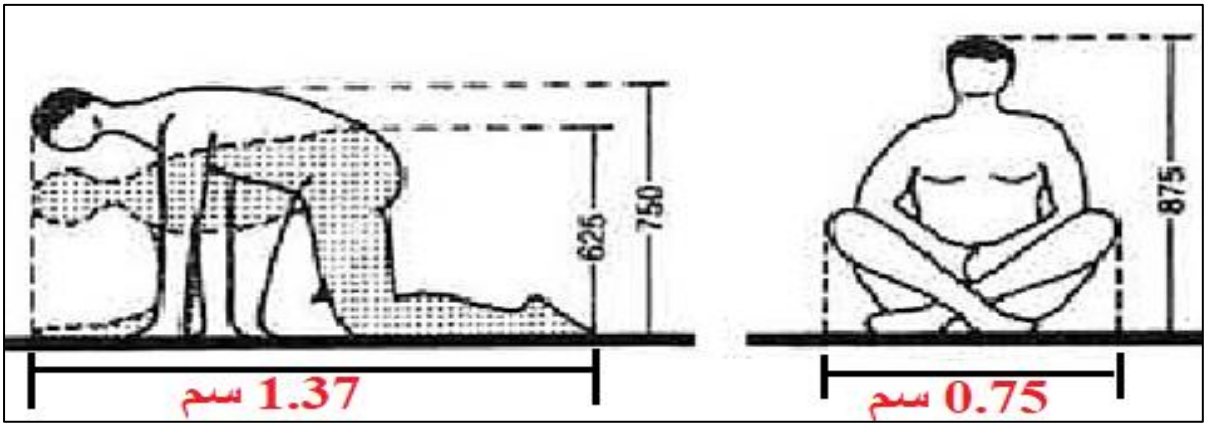

Ernest Neufert,les éléments des Projets de Construction, démentions et Places nécessaires,L'homme mesure de toute chose,7emme édition Traduit par C.Bacheré,M.Bartl, U.Benderitter,impression Dunod,(SD),p: 26

سُـــمي هذا المســـتطيل عند البعض من المعماريين الغربيين بالمســـتطيل الذهبي، وعرَّفوه على أنه كل مستطيل ينتج عنه مستطيل مشابه له بعد أن يجرد من مربَّع، يقام داخله وفقاً لأحد أضلاعه الصغيرة، بحيث إذا قسَّمنا طول المستطيل على عرضه، حصلنا على نسبة تعادل $\frac{\sqrt{5}+1}{2} = 1.61$ وهو ما يسمى بالعدد الذهبي، وأقرَّ جملة الدَّارسين أن النسبة الذهبية قد تكون أيضاً 0.60 أو 0.62 أو 0.61، ولكن الأكثر تداولاً هي النسبة الأولى.[7]

وعن أهم الأمثلة التي تجسِّد وتُظهر براعة المعماري المسلم في التصميم، وتسيير الفضاء الخاص بالعمارة الدينية ما يلي:

أ- مسجد سيدي إبراهيم المصمودي:

يعتبر هذا المسجد واحداً من المنشآت التي شيَّدها السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، يقع في الناحية الجنوبية الغربية لقصر المشور، تحده شمالاً تجمعات سكنية ذات طابقين وجنوبا تجمعات سكنية وشارع، أما شرقاً فيحده شارع ابن خميس يفصله عن دار الثقافة، وغرباً تحده بنايات سكنية قديمة، وشارع سيدي أبي عبد الله، لقد ذكر يحي بن خلدون أن أبا حمو موسى الثاني بنى المجمع بما فيه المسجد، ودفن بالضريح المحاذي له والده ثم نقل إلى جواره أخويه السلطان أبي سعيد وأبي ثابت من مدفنهما بالعبّاد.[8]

أخذ المسجد والضريح اسم العالم الفقيه سيدي إبراهيم المصمودي لاشتهار صلاحه عند الناس، وذكر الأخوان جيورج ووليام مارسيه أنه دُفن داخل أسوار المجمع ثمانين سنة بعد تأسيسه[9] ، فيما يخص نفقات هذا المسجد فقد تم وقف بعض المنشآت لصالحه استنادًا إلى نص وقفي منقوش في بلاطتين رخاميتين

موجودتين بمتحف تلمسان، تحمل كل واحدة كتابة في خمسة عشرة سطراً ارتفاعها يبلغ نصف متر، أما عرضها فيبلغ43 سم، واحدة من هاتين البلاطتين مكسورة في اتجاه العرض وهي تتمة لمثيلتها، مما أتلف اثني عشر سطراً منها إلا أن العبارات المتبقية والمتعلقة بقرار ملكي يقضي وقف بعض الأملاك على المجمع الديني مفهومة وهذا نصها:[10]

1–البلاطة الأولى:"أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين أبي حمو ابن مولانا الأمير أبي يعقوب ابن الأمير أبي زيد ابن مولانا الأمير بن زكرياء ابن مولانا أمير المسلمين أبي يحي يغمراسن ابن زيان وسل الله مفاخرة وخلَّد آثاره الكريمة ومآثره على هذه الزاوية المباركة المقامة على ضريح والد المذكور برد الله ضرِيحه فمن ذلك ما بداخله تلمسن المحروسة جميع الطاحونة الملاصقة للزاوية ولثلاثون حانوتا المعروفة بالصناعة القديمة والكوشة التي بمنشر الجلد وحمام الطبول وفرن مقسم الما وفندق العاليا وبخارج البلاد المذكور جميع الرحا السفلى بقلعة بني معلى والنصف شايِعا في روس المنية الكاينة بالرميل وزيتُون تيفدا وأرض الزيتون المذكور ثم معصرته وجمِيع المحبس..."

2–البلاطة الثانية: "ملكه وشهره الجميع تغني على التحديد تحبِيسا تاما مطلقا عاما ووقفا ثابتا أبديا ليصرف ما يستفاد من الحبس المذكور على معلمي العلم وطالبيه وإمام ومؤذن...عام ثلاثة وستين وسبع...ماية...عام...خمسة وستين وسبع ماية..."، كما تحدث شارل بروسلار عن النص معتبراً إيَّاه وثيقة تثبت نصاً تحبيسيا خصَّصه السلطان أبوحمو موسى الثاني الذي حكم البلاد ما بين سنة 760هـ /1360م وَ791هـ/1391م لفائدة المجمع الديني ككل.[11]

بالنسبة للوصف المعماري الداخلي لمسجد سيدي إبراهيم المصمودي محَّل اهتمامنا من الموضوع، فقد جاء بيت صلاته مستطيل الشكل بمساحة قدرها 292.60م^2 حيث يغلب عرضه المقدر بـ19م على عمق المقدر بـ15.40م، بها خمسة بلاطات عمودية على جدار القبلة.

تقوم ببيت الصلاة دعامات على شكل حرف **T** بيت الصلاة حدَّدت مسار وعدد كل من البلاطات والأساكيب، تستند فوقها عقود حدوية خالية من أي زخرفة، بالنسبة لسقفه فقد رُمِّم مؤخراً بما في ذلك المسجد ككل أعيد تشكيله وفقا لما كان عليه، لكن أضيف في عدد السقوف الجملونية مقارنة بما كان به قبل تضرره، فقد كان به سقف خشبي جملوني من الخارج يتقدم المحراب موازي لجدار القبلة طوله 7م وعرضه 3.50م، نفس الشيء بالنسبة للبلاطة الوسطى والجانبيتين، إذ جاء سقفهم جملوني بطول قدره 7م وعرض قدره 3.10م، حسب رشيد بورويبة هذا النوع من التسقيف لم يكن معمولاً به عند المرابطين، ولاعند الموحدين وأنه كان من ميزات العمارة التركية.[12]

الصورة رقم1: تبين منظر لجزء من مسجد سيدي إبراهيم المصمودي

www.facebook.com/tlemcen.history

المخطط رقم 1: يبين شكل مسجد سيدي إبراهيم المصمودي

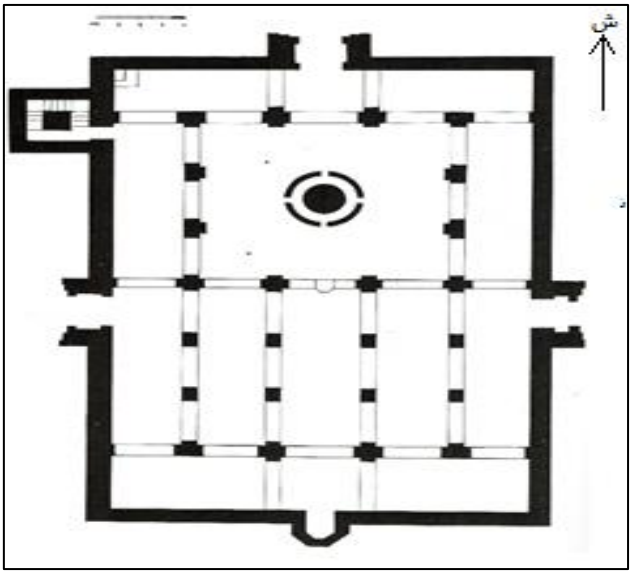

Rachid Bourouiba, Op.cit, p:71

من الجانب المعماري نجد أن البنَّاء المسلم جسَّد في بيت صلاة مسجد سيدي إبراهيم المصمودي المستطيل الذهبي وتجدر الإشارة أنَّ عدد الصفوف يتحدد وفقاً لطول المستطيل الذهبي المقدَّر بـ 1.37م، فإذا كان ناجم قسمة طول بيت الصلاة عليه هو نفس العدد الخاص بالصفوف، فتلك دلالة على أنَّ المعماري المسلم راع في بناء هذا المسجد ما يعتمده الفن المعماري الحديث، ونفس الأمر بالنسبة لعرض المستطيل الذهبي المقدَّر بـ 0.75م، فإذا كان ناجم قسمة عرض بيت الصلاة عليه هو نفس عدد المصلين الموجودين في الصف الواحد من اليمين إلى اليسار، باعتبار أن لكل مصَّلٍ ذلك المقدار من المسافة، فتلك دلالة واضحة على وجود المستطيل الذهبي الذي يحقق الراحة في الجلوس والركوع والسجود أثناء

تأدية الصلاة وقد أقرّ الباحث بسنوسي سيدي محمد الغوثي أنه بعد تقسيم عمق بيت صلاة المسجد المقدّر 15.40م على 1.37م (طول المستطيل الذهبي) الناتج هو 11 صفاً وتتبقى مسافة 24 سم، إذا ما قسِّمت على 11 صفاً فسيكون لكل منها 2سم، وهي نسبة قليلة جداً، ونفس الأمر عند تقسيم عرض بيت الصلاة المقدّر بـــ 19م على0.75م الحاصل هو 25 مصلياً، وتتبقى مسافة 33سم، إذا ماُ وزِّعت على عدد المصلين في الصف الواحد ستكون هناك مسافة فاصلة بين كل واحد منهم تقدر 1.32سم[13] . تبيَّن من خلال معاينتنا الميدانية التي قادتنا للمسجد أن بيت صلاته فعلاً يتضمن 11 صفاً، و25 مصلي في الصف الواحد، ما يؤكد أن المعماري المسلم بنى بيت الصلاة وفقاً لقاعدة هندسية تحقق مبدأ الراحة في الصلاة، يُصطلح على تسميته بالمستطيل الذهبي.

ب- مسجد سيدي الحلوي:

لم ينفرد مسجد سيدي إبراهيم المصمودي بالمستطيل الذهبي، فمسجد سيدي الحلوي هو الآخر أحد أهم العمائر الدينية التي برع في تشييدها المعماري المسلم إبَّان الفترة التي سقطت فيها تلمسان بيد المرينيين أنشئ على يد السلطان المريني أبي عنان فارس ابن أبي الحسن المريني إلى جانب الزاوية التي اندثرت معالمها كليا، أخذ هذا المسجد اسم الفقيه أبو عبد الله الشودي الملقب بسيدي الحلوي، ذلك ما تؤكده الكتابة التأسيسية المنقوشة بالخط الأندلسي التي نقلها بروسلار Brauslard، وقد جاء فيها مايلي: "الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك، مولانا السلطان أبو عنان فارس ابن مولانا أبي الحسن علي ابن مولانا السلطان أبي عثمان ابن مولانا أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق أيده الله ونصره عام أربعة وخمسين وسبعمائة، الموافق لسنة1353م، بعد أن غادر سيدي الحلوي إشبيلية التي كان بها قاضيا إلى تلمسان عام 1266م، تبرع بكل ثروته للفقراء ليصبح بائعاً للحلوى، ونتيجة لأدبه وعلمه الذي اتصف به التفّ الناس حوله وأكَنُّوا له الحب والتقدير، الأمر الذي حرَّك نفسية حسَّاده الذين دبروا له مكيدة ودسيسة لدى السلطان، حيث اتهموه بالزندقة، وهو ما أدَّى إلى تنفيذ حكم الإعدام في حقه بقطع رأسه، ليتبين فيما بعد أنه قُتل ظلماً، حينها أعاد السلطان المريني الاعتبار لهذا الفقيه، وبنى له ضريحا وأُعدم مدبر المكيدة.

يوجد مسجد سيدي الحلوي على مرتفع شديد الانحدار، تلتف حوله عدد من المساكن، يبلغ طوله 27.50م، أمَّا عرضه فيقدَّر بـــ 17.40م، يتم الولوج إلى داخله عبر مدخل ضخم به ستة درجات يفضي إلى باب ضخم يعلوه قوس على شكل حدوة الفرس، فيما يخص بيت الصلاة فله بابان جانبيان، يبلغ طوله

17.5م، أما عرضه فيبلغ 13.68م، ينقسم إلى خمسة أروقة عمودية على جدار القبلة عرض كل واحد منهما ثلاثة أمتار باستثناء الرواق الأوسط الذي يبلغ3.35م، وأربع بلاطات موازية لجدار القبلة، أعمدة المسجد من الرخام، يبلغ ارتفاعها 2م، وأقواسه حدوية الشكل، أما محرابه فيبلغ ارتفاعه 1.90م وقطر فتحته1.56م، تعلوه قبة مزينة بالمقرنصات، عقده على شكل حدوة الفرس، يستند على عمودين من الرخام، لكل منهما تاج به كتابتين، على التاج الأيمن جاء فيها مايلي:"جامع ضريح الشيخ الولي الرضى الحلوي رحمة الله عليه"، أما التاج الأيسر فجاء فيها مايلي:"أمر ببناء هذا الجامع المبارك عبد الله المتوكل على الله فارس أمير المؤمنين".

أما الصحن فجاء شكله مربع يبلغ طول ضلعه10.50م، يكتنفه يميناً ويساراً مجنبَّات امتداد للرواق الشمالي والجنوبي لقاعة الصلاة، وبالنسبة مئذنة المسجد توجد بالزاوية الشمالية الغربية بارتفاع يقدر بـ25م، عدد درجاتها 88 درجة، زخرفتها عبارة عن شبكة من المعينات المستندة على مجموعة من العقود يأتي أسفلها كوة عبارة عن إطار بها قوس مفصَّص، وتنتهي المئذنة بجوسق به زليج، وتحيط به شرافات.

الصورة رقم2: تبين منظر لمسجد سيدي الحلوي

المخطط رقم2: يبين شكل مسجد سيدي الحلوي بتلمسان

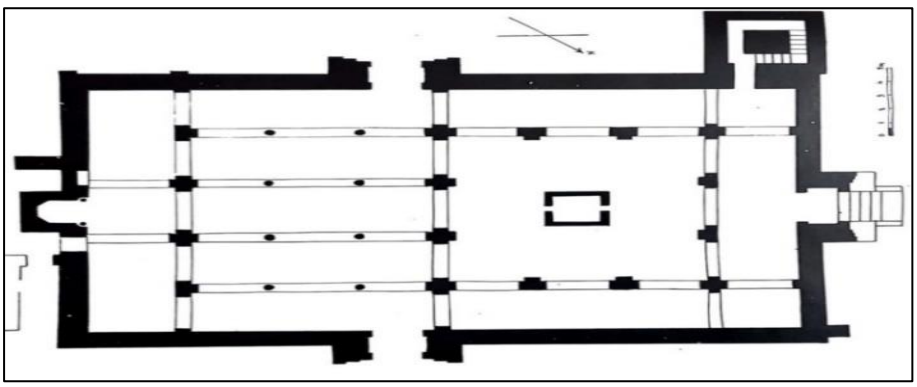

Rachid Bourouiba,Op.cit,p:94

لقد وجدنا أنَّ المعماري المسلم في فترة الاحتلال المريني لمدينة تلمسان أتقن فن البناء، حيث وضع في حسبانه القواعد الهندسية التي تحقق مبدأ الراحة في تأدية الصلاة، فضلاً عن المتانة واللَّمسات المعمارية التي تحقق تزاوج الجمال بالقوَّة، ولاحظنا في زيارتنا الميدانية أنَّ عدد الصفوف بلغ 12 صفاً، أمَّا عدد المصلين في كل صف هو 18 مصلياً، وهو ما وجدناه بعد تقسيم طول بيت الصلاة البالغ 17.50م على1.37م (طول المستطيل الذهبي)، حيث كان الناتج 12، وتبقَّت مسافة77سم، يستفيد منها المصلي للمشي إلى الصلاة، وفيما يخص عدد المصلين، فقد وجدناه مماثلاً لناتج تقسيم عرض بيت صلاة مسجد سيدي الحلوي المقدَّر بـــ 13.68م على 0.75م (عرض المستطيل الذهبي)، وتبقى مسافة قدرها 24 سم إذا ما وزَّعناها على عدد المصلين فسيكون لكل منهم 1.33سم لتحقيق أكبر قدرٍ من راحة العبد أثناء التقرب من ربِّه، الأمر الذي يبرز أن ما توَّصل إليه الفن المعماري الحديث، قد تفطَّن له المعماري المسلم قديماً ولم ينجز مبانيه الدينية خبط عشواء من دون الإلمام بقواعد الهندسة والتصميم. إن توافق تقسيم أبعاد بيت صلاة المسجد على أبعاد المستطيل الذهبي يؤكد من دون شك وجود هذا الأخير في عمارة هذا المسجد،فلو كان الناتج الذي وجدناه ميدانياً مخالفاً لاستنتجنا النقيض من ذلك.

جـ- مسجد سيدي أبي مدين:

بُنيت هذه التحفة المعمارية من طرف السلطان المريني أبي الحسن، بعد استيلائه على مدينة تلمسان في حدود عام 739هـ/1339م في العبّاد العلوي، ذلك ما تدل عليه كتابة نقشت فوق باب المسجد بخط أندلسي جاء فيها:"الحمد لله وحده، أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله علي بن مولانا أبي سعيد عثمان بن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيدّه الله ونصره، عام تسعة وثلاثين وسبعمائة، نفعهم الله بها"، وهناك كتابة أخرى موجودة على زخرفة هندسية آجرية، تتوجها ظلة من القرميد تحمل كتابة جاء فيها ما يلي :"هذا ما أمر به مولانا أبي الحسن عبد الله علي"، هذه الكتابة موجودة كذلك بالتاج الأيمن للمحراب، وفي التاج الأيسر توجد كتابة أخرى جاء فيها:" ابتغاء وجه الله العظيم ورجاءَ ثواب الجسيم كتب الله له به أنفع الحسنات وأرفع الدرجات"، حمل هذا المسجد اسم الولي الصالحِ سيدي أبي مدين ذي الأصل الأندلسي من مدينة إشبيلية، يعد من كبار الصوفية السنيين، بعد رجوعه من المشرق الذي شارك فيه مع الحجاج المغاربة في معركة حطين إلى جانب صلاح الدين، هنا تجدر الإشارة إلى أن هذا الأخير خصَّص لهم حيا بالقدس الشريف صار فيما بعد يسمى باسمهم أي حي المغاربة، استقر أبومدين ببجاية وانصرف للتعليم، ذاع صيته هناك إلى الحد الذي راجت حوله فكرة خاطئة دُبرت

من طرف بعض الحاسدين له، ذلك ما أقلق المنصور الموحدي الذي بعث برسالة إلى حاكم بجاية يأمره بإرسال سيدي أبي مدين إليه، لما انطلقت به القافلة وصولاً إلى حدود مدينة تلمسان، ولـمَّا تراءى له جمال جبل العبَّاد قال الولي الصالح:"ما أجمل ذلك المكان للاستراحة والنوم"، لم يلبث بعدها حتى اشتَّد عليه المرض ومات ليدفن بالعبَّاد عام 594هـ/ 1196م.[14]

من الناحية المعمارية جاء شكل هذا المسجد مستطيلاً بطول يبلغ 30م، وعرض يبلغ 18م، مدخله رائع الصنع علوه يبلغ7م له مصعد من إحدى عشرة درجة، يعلو هذا المدخل ظلة مصنوعة من القرميد المحمول فوق أكتاف خشبية، كما يتوج هذا المدخل قبة مزخرفة بمقرنصات، بالنسبة لبيت الصلاة تتضمن خمسة بلاطات عمودية على جدار القبلة، وأربعة أساكيب موازية لجدار القبلة، فيما يخص عرض الأروقة يبلغ عرضها 3.10م باستثناء الرواق الرئيسي الذي يبلغ عرضه3.50م.

أمّا بيت الصلاة فيقدر طوله بـ19م وعرضه بـ15م، يتم الولوج إليه عبر بابين جانبين، وبالنسبة للمحراب فهو يقع بالزاوية الجنوبية الشرقية تجويفه الداخلي ثماني الأضلاع تيجانه جيدة الصنع ورائعة الزخرفة قبته مخرَّمة ومزينة بالخزف ذي اللَّون الأزرق والأخضر والبني القاتم عقده، حدوي وهي لا تظهر للعيان من الخارج، أما من الدخل فيبدو أنها تعرضت للترميم والإصلاح في الفترة العثمانية، تنتصب المئذنة المبنية من مادة الآجر بالزاوية الشمالية الشرقية شكلها الخارجي رباعي كباقي مآذن مدينة تلمسان يبلغ ارتفاعها 27.50م، نسبها منسجمة ومتناغمة قوام زخارفها حشوات بها إطارات وشبكات من المعينات، عقودها مزينة بزخارف نباتية، يحتوي سلَّمها الذي يؤدي إلى الجوسق على 96 درجة تلتف حول النواة الرئيسية[15]، وفيما يتعلق بالصحن جاء شكله مستطيلاً تتوسطه ميضاءة تحيط بجهاته الشرقية والغربية أروقة تشكِّل امتداداً بيت الصلاة.

نفس الأمر تكرَّر في هذا المسجد، فقد التزم في تشييده المعماري المسلم بقواعد مضبوطة في الهندسة حيث وجدنا ناتج تقسيم طول بيت صلاته على طول المستطيل الذهبي هو العدد الخاص بالصفوف، أي 13صفاً، وتتبقى مسافة قدرها 86 سم لمرور المصلين، ونفس الأمر بالنسبة لعدد المصلين الذي وجدناه عقب معاينتنا الميدانية مماثلاً لناتج تقسيم عرض بيت الصلاة على عرض المستطيل الذهبي، وقد تمثَّل في 11 مصلياً في الصف الواحد،الأمر الذي يبرز أن المصلي كان يؤدي واجب العبادة في راحة تامة، لأن مقاسات هذا المستطيل الذي تبناه الفن المعماري الحديث ارتكزت على مقاسات إنسان بالغ.

الصورة رقم3: تبين منظر لجزء من مسجد سيدي بومدين

www.facebook.com/t3rfcom

المخطط رقم03: يبين شكل مسجد سيدي أبي مدين

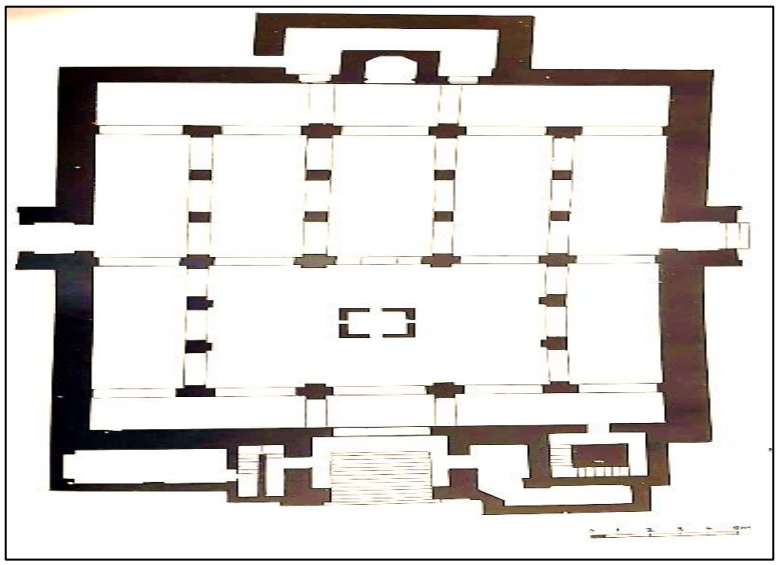

Rachid Bourouiba, Op.cit, p:93

الخاتمة:

بعد تطرقنا لموضوع المستطيل الذهبي في العمارة الإسلامية الدينية على وجه الخصوص، تبين لنا أن المعماري المسلم كان على دراية كبيرة بالمفاهيم الهندسية التي توصل الفن المعماري الحديث، وذلك يدل دلالة واضحة أن المستوى الفكري كان متقدِّما في تلك الفترة الزمنية، وهو الأمر لذي نلمسه أيضاً في تخطيط المدن الإسلامية عامة، حيث تمَّ اختيار مواضعها بعناية كبيرة، وترتيب استعمال فضائها العمراني بطريقة تكفل السير الحسن في المجال الديني والدنياوي. لاحظنا من خلال الورقة البحثية أن كلاً من الزيانيين والمرنيين اهتموا بتحصيل قاعدة المستطيل الذهبي على أرض الواقع، وهذ الأمر الذي جعلنا

نؤكد أن هذا العمل الهندسي كان عاماً وشاملاً عند جميع الدول الإسلامية. لقد أضفنا فضلا عن الصور المخططات لأن الموضوع ذو طابع هندسي محض، وعليه ستظهر تفاصيل المساجد بوضوح، فضلاً عن ذلك المساجد التي قدمناها هي الأكثر احتفاظاً بتصميمها المعماري الأصيل، وعليه ستوفر لنا صورة حقيقية عن مدى تطابق قاعدة المستطيل الذهبي التي تكلمت عنه كتب الهندسة في العصر الحديث مع بصمات الأسلاف.

هوامش البحث:

(1) سعاد ماهر، مساجد السيرة النبوية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1987، ص:98.

(2) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق أنس محمد الشـــامي وزكريا جابر محمد، دار الحديث، القاهرة 2008، ص:747.

(3) سورة الجن، الآية 18.

(4) سعاد ماهر، مساجد السيرة النبوية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1987، ص:98.

(5) سورة النور، الآيتان 36-37.

(6) Rachid Bourouiba, L'art Religieux Musulman en Algérie, 2emmeédition, SNED Algérie, 1983, p: 106.

(7) سيدي محمد بسنوسي الغوثي، الزخرفة في مساجد منطقة تلمسان، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، الجزائر 1990، ص:141.

(8) يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مج01، مطبعة بيير بونطانا الشرقية، الجزائر، 1903، ص:104.

(9) وليام وجورج مارسيه، المعالم الأثـــرية العربية لمدينة تلمسان، تقديم وترجمة مراد بلعيـــد، علي محمد بورويبة، فلة عبد مزيام، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص:424.

(10) بسنوسي الغوثي سيدي محمد، مرجع سابق، ص:274.

(11) Charle Brosselard,Les Inscriptions Arabes de Tlemcen,In(R)Africaine, 4emme année ,N°19, Arnolet imprimeur-libraire, Constantine,Algérie, 1860 ,p:72

(12) Rachid Bourouiba,L'art....,Op.cit,p:185

(13) بسنوسي الغوثي سيدي محمد، مرجع سابق، ص:275.

(14) Abbé jj Bargés, Tlemcen Ancienne Capital du Royaume de Ce Nom, Imprimerie Oriental du Manus Nicolas, France, 1859 , p:277.

(15) عبد العزيز محمود لعرج، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية دراسة أثرية معمارية وفنية، رسالة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، ج2، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1999، ص :585-612.